بانوراما ميلادية

د. ق. عاطف مهني المعصراني

مقدمة:

أشعر بالعجز الشديد وأنا أُمسك بالقلم لأدوِّن بعض التأملات البسيطة عن حادثة ميلاد يسوع المسيح ابن الله. فالحدث مليء بالتفاصيل العجيبة التي نتناولها في احتفالاتنا كل عام بالترنم والبهجة والممارسات الفلكلورية والتقاليد الجميلة. فلأول وهلة سألت نفسي: هل من جديد يمكنني أن أكتبه أكثر من آلاف الصفحات التي صيغت في كتب وترانيم ومسرحيات معبرة عن الانبهار البشري بالإبداع الإلهي في حادثة الميلاد؟ لست أملك جرأة الإجابة بـ"نعم" ولكني أتكل على روح الله ليعينني في تدوين شيء يسهم في تلميع وإبراز ما سجله كُتَّاب العهد الجديد بوحي من الروح القدس.

في هذه المقالة فكرت أن أتناول أمر الميلاد بنظرة شاملة من أسفار العهد الجديد، والتي يُطلَق عليها باليونانية "Panorama" حيث لن أقف طويلًا حول حدث الميلاد ومعانيه في سفر واحد، ولكني سأحاول أن أطوف معكم سريعًا في عددٍ من أسفار العهد الجديد لنرى كيف صوَّرت لنا ميلادَ مخلِّصنا. ومع إدراكي الكامل أن أحداث الميلاد التفصيليَّة لم تُروَ إلا في إنجيلَيْ متى ولوقا، إلا أنني أجد العديد من الإشارات والتلميحات في باقي الأناجيل، بل وأيضًا في كتابات بولس والعبرانيين والرؤيا. هذا يؤكد لنا أهمية هذا الحدث التاريخي للإيمان المسيحي، وإدراك كُتَّاب الوحي، بل وإجماعهم، على عدة أمور مثل: عذراوية الميلاد، وفرادة المولود، الذي اجتمع فيه كمال الناسوت واللاهوت، والذي تحققت في ميلاده العديد من النبوات المسيانية، والمواعيد الإلهية المتعلقة بخلاص البشرية. فلنبدأ نظرتنا البانورامية الآن.

الميلاد في إنجيل متى

في إصحاحين كاملين (متى 1، 2) يُورِد البشير متى أحداث ميلاد يسوع المسيح، ومع كل حدث يُسرَدْ، تصل للقارئ رسالةٌ رائعة. فمن خلال سجل نسب يسوع (مت 1: 1– 17) يتأكد لنا أنه ابن الموعد، المنحدر من إبراهيم الذي وُعدَ من الله أنه في نسله تتبارك جميع أمم الأرض (تك 26: 4؛ غل 3: 16)

لكن التركيز الأكبر في النسب هو كون يسوع من نسل داود الملك (مت1: 1، 6، 20). وهو الوحيد في سلسلة النسب الذي يُلقَّب بالملك، مع أنَّ سليمان ورحبعام ونسلهما المذكور كانوا ملوكًا، لكن التركيز على داود ووصفه بالملك هو استدعاء للمفهوم اليهودي عن المسيا؛ أي المخلِّص الممسوح من الله الآتي من نسل داود والذي ليس لملكه نهاية. ولا يخفى عن القارئ المدقِّق أن يسوع في إنجيل متى هو المقدَّم كابنِ داود، ملك اليهود، المولود في بيت لحم مدينة داود، والذي يتعرف عليه الكثيرون ممن شفاهم، ومن الجموع الذين رأوا آياته أيضًا كابن داود (مت 12: 23؛ 15: 22؛ 20: 30؛ 21: 9، 15). بل إن ضيوفًا أمميين، مجوسًا من المشرق، يأتون بهدايا متسائلين: "أين المولود **ملك** اليهود...؟" (مت 2: 2).

أما كون المولود هو ابنَ الله، أو الله الظاهر في الجسد، فيتأكد لنا من إنجيل متى في الحبل العذراوي العجيب الذي يحيِّر ويربك يوسف الصديق من جهة خطيبته البتول التي لم تعرف رجلًا، فإذا بالملاك يؤكد له أن مصدر حبلها ليس زرع بشر، بل الروح القدس "لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (مت 1: 20)، ويتأكد المعنى بالأسماء التي يجب أن يحملها المولود "يسوع"؛ أي مخلِّص (مت 1: 21)، عمانوئيل؛ أي الله معنا، أي أن الله بذاته حاضر معنا وحالٌّ بيننا في هذا المولود (مت 1: 23).

إن غرابة حدث الميلاد لا تنحصر في الميلاد العذراوي مع كونه سابقةً لم ولن يسجل التاريخ البشري نظيرًا لها، لكن تفسيرات الحدث وتبعاته ومعناه، كلها عجائب وإشارات تؤكد أننا أمام تدخل الله ذاتيًّا في مجرى التاريخ البشري بحدث أعظم من حدث الخلق وبدء البشرية. لذلك لم يكن عجيبًا أن يخاطب الله العالم المتحير، ممثَّلًا في مريم العذراء ويوسف الصديق، بأحلام وملائكة يوضحون أن البشرية في هذا الميلاد تختبر تدخلًا مباشرًا من روح الله لينجب من رحم فتاة بسيطة فقيرة عذراء، ملكَ الملوك وربَّ الأرباب؛ لأن بهذا التدخل الإلهي أصبح الله معنا حالًّا في بشريتنا، آخذًا شكلنا، متحدًا بضعفنا، ومخلِّصًا لجنسنا.

هنا بدأ البشيرُ متى يستوعب بالروح القدس أنه أمام تحقيق أعظم الوعود الإلهية التي أُعطِيَت للآباء وسجلها الأنبياء عن مجيء مخلِّص مُرسَل من الله، لذلك أكثَرَ متى من عبارته المشهورة "لكي يتم ما قيل بالنبي..." (انظر مت 1: 22؛ 2: 15؛ 2: 23؛ 4: 14؛ 8: 17؛ 12: 17؛ 13: 35... إلخ).

ومن أعجب ما سُجِّلَ بشأن حادثة الميلاد في إنجيل متى أن هذا الملك العظيم، ابن داود وإبراهيم، تشترك في سلسلة نَسَبِه الملوكية نساء أمميَّات مثل راعوث الموآبية (مت 1: 5)، ونساء ذوات تاريخ غير مشرِّف مثل ثامار وراحاب وبثشبع (مت 1: 3، 5، 6). هذا السِّجِلُّ لم يُذكر هباءً، لكنه يفتح باب الرجاء بالخلاص لكل الأمم، ويشرق بنور عظيم على الأُمَمَةِ والخطاة والعديد من الناس السالكين في الظلمة (مت 4: 16// إش 9: 2).

ولا يفوتني أن أشير إلى اضطهاد هيرودس للطفل يسوع، وجميع أطفال بيت لحم بالتبعية، لمجرد سماعه تساؤل المجوس عن مكان ميلاد ملك اليهود، غير مدرك أن مملكة هذا الملك، ليست من هذا العالم. وجاء إنقاذ الله للطفل الوليد بإرساله إلى أرض مصر حتى موت هيرودس (مت 2: 13–20). وفي هذه الحادثة الكثير من التعزية للمضطهدين، وربما لإخوتنا في غزة وبيت لحم هذه الأيام بصفة خاصة، مذكِّرة إيانا أن إلهنا المتجسد، تجرب في كل شيء مثلنا، لذلك يقدر أن يعين المجربين ويسمع أنات قلوبهم.

الميلاد في إنجيل مرقس

نعلم جميعًا أن البشير مرقس لم يذكر أية حادثة عن الطفل أو الصبي يسوع، ولا كيف جاء إلى عالمنا، بل بدأ بشارته مباشرةً بخدمة يسوع التي كانت تتكشف معها إجابة عن السؤال "من هو هذا؟" (مر 1: 27؛ 4: 41؛ 6: 2)؛ فمع كلِّ تعليمٍ بسلطانٍ وكلِّ آيةٍ صنعها يسوع، كان البشير يكشف لنا جانبًا من حياة ابن الله، تجيب جزئيًّا على السؤال: "من هو هذا؟".

لكن إنجيل مرقس لا يخلو في بدايته من إشاراتٍ توضح وتؤكد ما ورد في الأناجيل التي تناولت أحداث الميلاد بالتفصيل؛ فمع أول عددٍ في الإنجيل يذكر البشير أن كتابه هو بشارة عن ابن الله "بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ اللهِ" (مر 1: 1)، ثم تأتي شهادة يوحنا المعمدان عن عظمة ذاك الآتي بعده، الذي لن يعمِّد مثله بماء بل بالروح القدس (مر 1: 7– 8)، وبعد ذلك تأتي شهادةُ السماء من أقنومَيِ الآب والروح القدس أثناء معمودية يوحنا ليسوع المسيح. فالروح ينزل عليه على هيئة حمامة، والآب يتكلم بصوت مسموع شاهدًا: "أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مر 1: 9– 11)، وتستمر الشهادة في الإنجيل عن كون يسوع هو ابن الله، وتأتي الشهادة أيضًا من الأرواح النجسة (مر 1: 24)، ومن الجموع، وحتى من أشخاص أممين (مر 15: 39).

فإن كانت هذه الإشارات تؤكد أن هذا هو ابن الله وليس مجردَ نبيٍّ أو خادم مُرسَل من الله، فإن هناك إشارات وتلميحات في الإنجيل تؤكد بصورة أو بأخرى الميلاد العذراويّ، حتى وإن كان مناهضو يسوع آنذاك يستخدمون الأمر بصورة سلبيةٍ. فقد كان يسوع يُعرف بأنه ابن مريم "أَلَيْسَ هذَا هُوَ النَّجَّارَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَأَخُو يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ ههُنَا عِنْدَنَا؟» فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ" (مر 6: 3).

الميلاد في إنجيل لوقا

يفرد البشير لوقا ثلاثة إصحاحات تقريبًا لأحداث الميلاد وطفولة الرب يسوع. وتتميَّز أحداث الميلاد في لوقا بالبساطة والرشاقة وسرعة تحرُّك عدسة الكاميرا ما بين رصد المولود وأمه العذراء وخطيبها يوسف، ثم التحول السريع لأحداثٍ ذات علاقة بالمولود تقع مع جيران وأقارب عائلة يسوع، مثل زكريا وأليصابات وغيرهم. وما بين تحركات عدسة البشير لوقا المختلفة تتأكد لنا دقة العديد من الأحداث والمعاني التي وردت في رواية البشير متى، بشأن المولود العجيب وهويته، مع إضافات عديدة بأحداث لم تُروَ في بشارة متى، واستنتاجات بديعة عن هوية المولود المُرتَقَب؛ فها نحن أمام لحظة تاريخية يتدخل الله فيها بصورة معجزية

لإنقاذ البشرية الساقطة. ولقد تميزت رواية البشير لوقا برصدٍ للعديد من شهود الحدث أكثر ممن وردوا في متى. هؤلاء الشهود أعدهم الله وهيَّأهم لاستقبال المخلِّص المولود وإدراك ماهيته. وسأبدأ بهؤلاء الشهود أولًا. فنحن أمام زوج من المسنين، زكريا الكاهن وأليصابات زوجته العجوز العاقر، وإذا بملاك الرب يُبشرهما بميلاد يوحنا في عمل معجزي يحاكي ميلاد سارة لإسحاق، ولم يكن ذكر البشير لوقا لتلك الحادثة (لو 1: 5– 25) انحرافًا عن هدف الإنجيل المتعلق كله بيسوع المسيح ابن الله، بل كان يحمل رسالتين رائعتين: **أولهما** أهمية المولود يسوع المسيح التي استدعت أن يسبقه مُعِدًّا لاستقباله (لو 1: 13– 17، 76؛ 3: 1– 14). و**ثانيهما** تهيئة مريم العذراء لتدخُّل الله بصورة فوق طبيعية بميلاد عاقر مُسنة. الأمر الذي يُمهد لقبول ولادة عذراء بدون زرع بشر "لأنه لا يستحيل على الرب شيء" (لو 1: 34– 37).

والمتأمِّل لتعليق أليصابات على ما حدث لها بمجرد زيارة العذراء مريم لها، وكيف نطقت بالروح القدس أن الجنين الذي تحمله قد ارتكض في بطنها إدراكًا أنه أمام والدة السيد الرب الذي سيُعد الطريق له (لو 1: 41– 43). ثم تأتي تسبحة زكريا أبي يوحنا (لو 1: 67– 80)، والتي فيها شكر وتطويب ليوحنا في عدد واحد لكونه سيتمتع بامتياز إعداد طريق الرب (ع. 76)، أما باقي الأعداد فكلها شكر لله على حفظه لعهده لإبراهيم ووعوده التي نطق بها الأنبياء، بتدبير مُخلِّص وفادٍ لإسرائيل، الذي هو يسوع.

وتمتد قصة الميلاد في لوقا لتكشف لنا أعظم الإعلانات عن ماهية المولود، وذلك من خلال استمرار إعلانات الملائكة أو الكلمات العجيبة التي نطق بها بعض المغمورين أثناء معاينتهم لأحداث معينة للطفل المولود. فها هو ملاكٌ يظهر لجماعة بسيطة غير موقَّرة من الشعب اليهودي، هم رعاة الغنم ليخبرهم بفرح عظيم يكون لهم ولجميع الشعب بميلاد مخلص هو المسيا "مسيح الرب" (لو 2: 8– 12)، وقبل أن ينهي الملاكُ بشارتَه الفَرِحَة يظهر معه جمهورٌ من الملائكة، مسبِّحين الله ومؤكدين أن مع ميلاد يسوع

يتحقق المجد لله في الأعالي؛ لأن وعوده تتحقق مؤكده أمانته، ويحل على الأرض السلام بل الفرح والسرور لأن مخلِّصهم ومُصالِحَهم مع الله قد جاء (لو 2: 13– 14).

آه يا سيدي الرب. أجد نفسي فَرِحًا ومتهللًا، بل ومُكرمًا، مع جماعة الرعاة. فإن كان هؤلاء في فكرك ولم يتخطاهم خلاصك، فالرجاء بل كل الرجاء لي أنا وكل غير مستحِقٍّ نظيري.

وينفرد البشير لوقا بأنه يمتدُّ بنا في روايته لنعاين بعض الأحداث في طفولة يسوع، وما صاحبها من شهادة شهود. فها يوسف ومريم يصعدان بالصبي، بعد ختانه، لتقديم هذا الابن البكر وتكريسه للرب حسب الشريعة، وتقديم زوجَيْ حمام ذبيحةً لله بحسب شريعة موسى عن تقديس الطفل وفدائه كابن بكر. انظر (خر 13: 13؛ 34: 20ب).

وهنا يظهر شخصٌ وقورٌ اسمه سمعان الشيخ، يصفه البشير بأنه كان رجلًا بارًّا ينتظر تعزية إسرائيل (لو 2: 25)، والمقصود أنه كان ينتظر الخلاص الذي يتحقق في زمن المسيا. وكان قد أُوحي للرجل بالروح القدس أنه لن يفارق الحياة قبل أن يرى المسيا (مسيح الرب). ويبدو أن الروح القدس الذي أوحى إليه بذلك قد همس في أذنيه منبهًا "هوذا أنت الآن أمام مسيح الرب وجهًا لوجه"! لذلك جاء سمعان إلى أبوَي يسوع، وأخذ الطفل منهما، وحمله على ذراعيه وقال: "الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك (وعدك) بسلام لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك الذي هيَّأته للشعوب كلها نورًا لهداية الأمم ومجدًا لشعبك إسرائيل" (لو 2: 29– 32 بحسب الترجمة المشتركة).

هنا وفي هذه الشهادة، لا يؤكد لنا البشير لوقا فقط على أن المولود هو المسيا المخلِّص، بل يضيف أيضًا أنه مخلِّصُ وهادي جميع الأمم وليس اليهود فقط. وبصورة مشابهةٍ نجد حنَّة النبيه، الأرملة المُسنَّة الملازمة للهيكل طلبًا لخلاص الرب، تقف مسبحةً لله ومهللةً له؛ لأنها أدركت بالروح القدس أن خلاص الله للبشرية يتحقق في هذا المولود (لو 2: 36– 38).

ويسير لوقا بنا خطواتٍ أبعد لنرى كيف كان يسوع وهو يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس. ففي سن الاثني عشر عامًا نراه يدخل الهيكل أثناء إحدى زياراته مع أبويه التقيَّيْن ليعيِّدوا الفصح في أورشليم بحسب الشريعة، وبعد انقضاء العيد، وخلال عودة أسرة يسوع إلى سكنهم بالجليل، إذا بيسوع يتخلف عن جماعة المسافرين العائدين للجليل، بينما يظل هو في الهيكل، جالسًا وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ويناقشهم (لو 2: 41). ويعلق البشير على هذا الحدث بأمرين مهمين: **أولهما** تَعجُّب جميع من سمعوا حوار الصبي يسوع مع المعلمين من فهمه وأجوبته (ع. 47) و**ثانيهما** إجابة يسوع على والدَيْه المنزعجَيْن لتخلُّفه عن رفقائه وجماعة المسافرين بقوله: "ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟" (ع. 49)، وبالطبع هذا القول فيه إشارة واضحة لإدراك يسوع، حتى وهو صبي، أنه ابن الله.

وفي الإصحاح الثالث، يقفز البشير لوقا بنا عدة سنوات، لتقدِّم عدستُه لنا لقطةً عن الدور الذي قام به يوحنا المعمدان، والمتزامن مع بدء خدمة يسوع المسيح. فإذا بيوحنا يعمِّد الشعب بمعمودية التوبة، وعندما بدأت الجموع تتساءل إن كان هو المسيح أم لا (لو 3: 15) يجيبهم يوحنا في الحال أنه ليس إلا ممهِّدًا ومُعِدًّا لطريق الرب، المسيا، الذي هو أقوى منه وأعظم منه بما لا يقاس، حتى أنه غير مستحق أن يحل سيور حذائه، وإن معموديته لا تعدو كونها إشارةً خارجيةً بالماء للتطهير المصاحب للتوبة، أما ذاك المسيا فهو يعمِّد الناس بالروح القدس ونار (ع. 16)، في إشارة إلى التغيير الداخلي المحيي، المطهِّر والمقدِّس لقلب الإنسان. لعل إجابته كانت تحمل تلميحاتٍ لنبوة حزقيال عن روح الله المعطي حياةً حتى للعظام اليابسة (حز 37: 1– 10)، ونبوة يوئيل عن الزمن الذي سيَسكُبُ فيه الله من روحه على كلِّ بشر (يؤ 2: 28). ولا يختلف لوقا كثيرًا عن متَّى في إدراكه أنه مع ميلاد هذا الطفل تتحقَّق العديد من النبوات والوعود المسيانية، فما عمله يوحنا المعمدان ليس إلا تحقيقًا لنبوة إشعياء بإرسال الله من يُعِدُّ الطريقَ أمام المسيا، في مشهد يُشبِه الاستعداد لدخول ملكٍ عظيم لمدينةٍ ما، حيث يمهد الطريق لمركبته الملوكية بأن تُملَأ الحفر "كل واد يمتلئ" وتُزال العوائق المرتفعة "وكل جبل وأكمة ينخفض" والمنحنيات الخطرة تُسوَّى

"وتصير المعوجات مستقيمة والشعب طرقًا سهلة" وهكذا تسير مركبة الملك في أمان، ويكون هناك فرصة لجميع المُستقبِلين أن يشاهدوا المركبة الملكية دون معوقات "ويبصر كل بشر خلاص الله" (لو 3: 5– 6).

يا لروعة وإبداع الميلاد في إنجيل لوقا! فيسوع المولود يُقدَّم كالمُخلِّص البسيط المولود من عذراء فقيرة في مذودٍ حقير، لكن هذا لم يَنقُض دراية البشير بأن هذا المُخلِّص البسيط هو الملك ابن الله الذي يسبقه ويمهِّد طريقه أحد أعظم المولودين من النساء، يوحنا المعمدان.

ويختم لوقا البشير تصويره للميلاد وطفولة يسوع بسرد نَسَبه (لو 3: 23– 38) متوافقًا مع متى في التركيز على كون يسوع ابن إبراهيم (الذي نال الوعد الإلهي بأن في نسله تتبارك كل قبائل الأرض. وهو ابن داود –الذي من نسله يأتي المسيا– لكن لوقا يذهب أبعد من متى بالامتداد بنسب يسوع ليس فقط إلى إبراهيم بل إلى آدم (لو 3: 38)، وبهذا يؤكد أن هذا المخلِّص ليس فقط لإسرائيل، ولكنه لجميع بني آدم، نعم يا سيدي وإلهي: الآن أفهم لماذا ترنمت الملائكة أن على الأرض السلام، وبالناس (جميعًا) المسرة.

الميلاد في كتابات يوحنا

ننتقل الآن إلى البشير يوحنا لنرى كيف صوَّرت عدسته الميلاد، وهو كالبشير مرقس لم يتكلم عن التفاصيل المادية الملموسة للميلاد ولا عن طفولة يسوع.

يكتب البشير يوحنا بلغة مجازية لاهوتية عميقة استُبدل فيها لفظ "الطفل" بألفاظ "الكلمة" و"النور" و"حمل الله" على الترتيب (يو 1: 1، 9، 29). ويستبدل كلمة "الولادة" بـ"التجسد".

"فالكلمة صار جسدًا وحل بيننا" (يو 1: 14أ)، وهذا التقديم البديع ليسوع ككلمة الله يُظهر أن في المسيح المتجسِّد، قدم اللهُ لنا ذاته وعرَّفنا بنفسه كما لم نعرفه من أي إعلان سابق. "اَللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. اَلابْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ" (يو 1: 18). فهو ابن الله الوحيد الأصيل، الذي من

عرفه ورآه فقد رأى وعرف الآب "أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟" (يو 14: 9).

وفي إشارات عديدة –لا سيما خلال حوارات السيد مع اليهود– يبدو واضحًا دراية البشير يوحنا بمجيء يسوع من السماء، لا من زرع رجل "لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي، بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (يو 6: 38). وعليه فإن أزلية يسوع، الله المتجسد، تظهر من أول الإنجيل وخلال كل أحداثه وتعاليمه "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ" (يو 1: 1؛ انظر أيضًا 1: 3؛ 8: 58).

هذا الأمر ممتد في رسائل يوحنا؛ حيث يؤكد الرسول أن "كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ" (1يو 4: 2). وتعبير "جاء في الجسد" لا يُطلَق على مولود ولادة طبيعية بل على من جاء من السماء، من الروح القدس، تمامًا كما رأينا سابقًا في كتابة البشيرين متى ولوقا. ويستمر البشير يوحنا في إمتاعنا بإظهار هوية يسوع المسيح، فهو **المسيا** (يو 1: 41؛ 4: 25)، وهو **ابن الله** (1يو 5: 13)، وهو **النور الحقيقي**، و**نور العالم** (يو 1: 9؛ 9: 5)، وهو **حمل الله** الذي يرفع خطية العالم (يو 1: 29)، وهو **خبز الحياة** (يو 1: 35– 48)، وهو **ماء الحياة** (يو 4: 14)، بل وهو **الحياة الأبدية** ذاتها (يو 17: 3، 1يو 1: 2)، وهو **الباب** والمدخل و**الطريق إلى الآب** (يو 10: 9، 14: 6)، وهو **الراعي الصالح** (يو 10: 14)، وهو **الحق الكامل** (يو 14: 6)... إلخ.

أما عن الطريقة التي يُقدَّم بها يوحنا المعمدان في إنجيل يوحنا فهي لا تختلف كثيرًا عنها في باقي الأناجيل، لكنه ليس فقط مُعِدًّا لطريق الرب بحسب إشعياء النبي (1: 23)، بل شاهد عن إعلان الله له بالروح القدس "وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، فَهذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ" (يو 1: 33–

34). والجميل أن شهادة يوحنا شملت تقريبًا كلَّ ما تكلمنا عنه من ألقاب للسيد المسيح في إنجيل يوحنا مثل كونه النور وحمل الله والمسيا، ومن سيُعمِّد بالروح القدس، وابن الله، والأزلي الذي كان قبله والعظيم الذي هو غير مستحِقٍّ أن يحل سيور حذائه (يو 1: 19– 34).

هل مِن بلاغة وروعة أعظم من تصوير البشير يوحنا لميلاد المسيح؟! ذاك البشير الذي كتب متأخرًا بعد أن عُرِفت التفاصيلُ التاريخيةُ لمولود بيت لحم، إذا به يفاجئنا بهذا الفيض من الإدراك لهوية ذاك الوليد كالكلمة المتجسِّد، ابن الله، حمل الله، واهب الحياة، بل الحياة ذاتها!

الميلاد في كتابات بولس

نعلم جميعًا أن بولس لم يكتب شيئًا مباشرًا عن ميلاد يسوع المسيح، لكن هذا لا يمنع من أن نجد في رسائله المختلفة إدراكًا ووعيًا بميلاد يسوع المسيح العذراوي وماهية المولود ودلالاتها. ففي رسالته لأهل غلاطية 4: 4، وبينما كان الرسول يشرح لأهل غلاطية روعة التحول التي حدثت في حياة البشرية بمجيء يسوع المسيح؛ التحول من أناس قُصَّر، محكومين بسلطة الناموس، غير ناضجين بالقدر الكافي للتمتُّع بالميراث الإلهي، إلى أبناء كاملي الأهلية يمكن أن تكون لهم شركة مستمرة مع الله ليدعونه "أبا الآب"، متمتعين بكل عطية وميراث روحي في الآب (غل 4: 1– 3).

متى حدث هذا؟ يجيب الرسول بولس قائلًا: "لكِنْ لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ η πληρόμα του χρόνου أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُودًا مِنِ امْرَأَةٍ، مَوْلُودًا تَحْتَ النَّامُوسِ، لِيَفْتَدِيَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، لِنَنَالَ التَّبَنِّيَ" (غل4: 4–5). هنا ينحت الرسول بولس تعبيرًا يونانيًّا جميلًا هو "ملء الزمان". وهذا التعبير يُطلَق على بلوغ الإنسان أو النبات النضج، أي الوصول للوقت المناسب لحدثٍ مهمٍّ؛ فعندما تدخل المرأة في شهرها التاسع، يقال إنها في ملء زمانها، أي أنها أتمت وقتها والوقت أصبح مناسبًا لتضع مولودها في أي لحظة.

وكذلك الأمر عندما ينمو نباتٌ ما وتنضج ثمارُه يقال إنه في ملءِ زمانه؛ أي أنَّ وقت حصاد الثمر قد حان. ويُطلق الأمر أيضًا على الولد عندما يبلغ سنَّ الرشد حيث يُعتَبَر أنه بلغ ملء الزمان، وعليه أن يودِّع الطفولة ويتمتع بحقوقه كاملةً دون أوصياء.

ويربط الرسول بولس ملء الزمان (الوقت المناسب للبشرية)، بمجيء ابن الله مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس. والتعبير "مولودًا من امرأةٍ" ليس له معنى إلا لو كان يشير فيه الرسول إلى عذراوية ميلاد ابن الله، دون زرع بشر أو مشيئة رجل؛ لأن كل إنسان هو مولود المرأة. أما تعبير "تحت الناموس" فهو يشير بالطبع إلى جنسه اليهودي، ولكنه يشير أيضًا إلى كمال بشريته ككل إنسانٍ يهوديٍّ خاضعٍ لناموس الله. ويحمل هذا التعبير أيضًا إشارةً إلى **حكمة الله** في اختيار التوقيت المناسب في التاريخ لمجيء ابنه، وأيضًا يتضمن **نعمة الله** الذي تدخل بإرسال ابنه ليفدينا فننال التبني ولا نظل كعبيد أو أبناء قُصَّر تحت وصاية الناموس وأركان العالم (غل 4: 4-7).

ويجدر بنا أن نستعرض بعضًا من كتابات الرسول بولس الأخرى لنرى كيف عرف يسوع المسيح، وماذا كان يعني له مولود المرأة الذي أرسله الله الآب في ملء الزمان. وسأكتفي بالتأمل السريع في (في 2: 5- 11؛ كو 1: 15- 20).

ففي رسالة فيلبي، وبينما يطالب الرسول اثنتين من قيادات الكنيسة بالتحلِّي بالتواضع والتخلِّي عن المنافسة معًا، يُذكِّر بولسُ المرأتين بعلاقة يسوع المسيح ابن الله بأبيه في إشارات لا تخطئها عينٌ أنه يشير إلى حدث التجسُّد والميلاد. فيطلب منهما أن يكون لهما الفكر الذي في المسيح يسوع (في 2: 5)، هذا الابن الذي، إذ كان في صورة الله؛ أي الذي هو الله حتى أننا عندما نقول إنه معادلٌ ومساوٍ لله لا نختلس له شيئًا ليس من حقه "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ." (ع. 6)، لكن إذ به يُخلي نفسَه من كل أمجاده ويأخذ صورة الإنسان، العبد المخلوق (ع. 7)، ومع قبوله التجسُّد يضع نفسه

للموت، موت الصليب (ع. 8). وبسبب هذا الاتضاع والخضوع لمشيئة الآب، رفَّعَه الله وأعطاه اسمًا فوق كل اسم، حتى أن كل خليقة –في السماء أو على الأرض أو تحت الأرض– تجثو له وتعترف به كربٍّ وسيدٍ وإلهٍ (ع. 9– 11). هكذا هي العلاقة بين الآب والابن: لا تنافس أو تطاحن، بل محبة كاملة، ومشيئة واحدة، وإكرام متبادل.

في كو 1: 15– 20، وبدون شرحٍ أو إسهابٍ، سأسرد فقط الأوصافَ التي قدم بها بولسُ يسوعَ المسيحَ: هو صورة الله غير المنظور (ع. 15أ)، تمامًا كما قدَّمه البشير يوحنا كالابن الذي في حضن الآب، الذي من يراه قد رأى الآب. وهو بكر كل خليقة أي رأسها وسيدها (ع. 15ب). وهو من فيه وبه وله خُلق كل شيء ما في السماوات وما على الأرض (ع. 16). وهو الأزليُّ الذي هو قبل كل شيء (ع. 17أ). وهو مصدر استمرار كل خليقة ووجودها "فيه يقوم الكل" (ع. 17ب). وهو رأس الكنيسة التي هي جسده لكونه بادئها ومؤسسها وفاديها (ع. 18). وهو مستحقٌّ لهذا كله لأن يحمل في تجسده كل ملء الله وكمال جوهره (ع. 19). وهو بخضوعه وتواضعه كان مصالحًا لنا مع الآب بدم صليبه (ع. 20). هذا جزء يسير من أوصاف يسوع المسيح مولود بيت لحم، مولود المرأة في كتابات الرسول بولس.

الميلاد في كتابات الرسائل العامة

لضيق المساحة، سأكتفي بلمحاتٍ ميلاديةٍ من الرسالة إلى العبرانيين؛ ففي بداية الرسالة، وبشكلٍ يتطابق كثيرًا مع التعبيرات الميلاديَّة في إنجيل يوحنا وأوصاف يسوع في رسالة كولوسي، نجد كاتب العبرانيين يقدم لنا يسوع بأنه ليس مجرد أحد إعلانات الله للبشرية التي كلم بها آباءنا بالأنبياء، بأنواع وطرق كثيرة (عب 1: 1)، بل هو الكلمة الأخيرة والإعلان الأعظم للبشرية. ففي ابن الله، لم يكلمنا الله بأسرار ولا بكلمات نفهم منها شيئًا يسيرًا عنه، لكنه كلَّمنا عن الوارث لكل شيء عن الآب؛ أي الذي له كل ما للآب

من جوهر وصفات وقدرات (ع. 2). فإنه هو الخالق الذي به عُمل العالَمِين (ع. 2ب). الذي هو بهاء مجد الله، فالمجد لا يُرى، أما مظاهرُه ولمعانُه وبريقُه فتعكس هذا المجد. وهكذا فإن الابن المتجسِّد هو الذي يعكس لنا ويخبرُنا بمجد الآب الذي لم يَرَه أحدٌ قط (ع. 3أ). وهو رسم جوهره أي تجسيدٌ لذات الآب وجوهره، وهو حامل كل شيء بكلمة قدرته (ع. 3ج). هذه التعبيرات تشبه كثيرًا ما عبَّر عنه بولس في كولوسي أنه "فيه سُرَّ أن يحل كل ملء اللاهوت" (كو 1: 19). وهو المصاحب للآب دائمًا عن يمين العظمة (ع. 3د). وهو أعظم بكثيرٍ من الملائكة خدَّامِه الذين يسجدون له (ع. 4، 6، 7). وهو من يقول له الآب بوضوح: "أنت ابني" (ع. 6). وهو الملك العادل الذي مُلْكُه كله استقامةٌ، وكرسيُّ مملكتِه يدوم إلى الأبد (ع. 8). هذا ما يقدم به الكاتبُ يسوعَ المسيحَ كأعظم إعلانات الله، وتستمر الرسالة في سرد عظمته كأكمل ذبيحة (عب 9: 12)، وأعظم كاهن (عب 5: 1– 10)، الأعظم من هارون، والأعظم من موسى وناموسه، بل الأعظم من الهيكل لأنه ليس خادمًا للبيت (الهيكل) كموسى بل هو باني البيت بدم نفسه (عب 3: 3). هذا العظيم الذي هو أمجد وأعظم من كلِّ ما في التراث اليهودي الذي كانوا يعتزون به، صار مثلنا مُجرَّبًا في كل شيء بلا خطية "لكي يرثي لضعفاتنا" (عب 4: 15).

ومن العجيب الصورة التي تظهر بها درايةُ كاتب العبرانيين وفهمه لحدث التجسُّد؛ ففي الإصحاح العاشر يرسم الكاتب بالوحي المقدس حوارًا بين الابن والآب قبل مجيء الابن إلى العالم بالتجسد: "لِذلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «ذَبِيحَةً وَقُرْبَانًا لَمْ تُرِدْ، وَلكِنْ هَيَّأْتَ لِي جَسَدًا. بِمُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلْخَطِيَّةِ لَمْ تُسَرَّ. ثُمَّ قُلْتُ: هنَذَا أَجِيءُ. فِي دَرْجِ الْكِتَابِ مَكْتُوبٌ عَنِّي، لأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا أَللهُ»" (عب 10: 5–9). والمعنى أن الابن –الذي يعرف أن الآب لا يُسَرُّ بذبائح أو مُحرَقات حيوانيَّة للتكفير عن خطيتنا، والذي يعرف تلك المشيئة المعلَنة في النبوات (الدرج– الكتاب)– يضعُ نفسَه تحت تصرُّف الآب، راضيًا بأن يهيِّئَ له جسدًا يكون هو الذبيحة المرضية من الآب. هل هناك درايةٌ أروع بحدث الميلاد كتجسُّدٍ لابن الله في الميلاد، تمهيدًا لتقديم جسده على الصليب، ذبيحة مقبولة، مرة واحدة، نال بها عنا فداء أبديًّا!

الميلاد في سفر الرؤيا

بالطبع هذا السفر الرؤيوي لا يقدم لنا الميلاد كأحداثٍ وتفاصيل تاريخيَّةٍ، لكنه لا يخلو من تلميحاتٍ ميلاديَّةٍ جميلةٍ حين يشير إلى يسوع المسيح بتعبير "نسل المرأة" و"الابن الذَّكَر"، الذي كان موضعَ اضطهاد التنين هو وأمه، والذي شَنَّ هو ومملكتُه حروبًا كثيرة عليهما لكنه كان موضع اهتمام السماء وعنايتها وحمايتها (انظر رؤيا 12). هذا الابن يذكِّرنا بوعد الله بالفداء منذ سقوط البشرية "نسل المرأة يسحق رأس الحية" (انظر تك 3: 15). هذا هو الشاهد الأمين، الذي يشهد عن أمانة الله في تحقيق وعوده، أنه هو الخروف المذبوح لأجلنا (رؤ 5: 12؛ 13: 8)، وهو شجرة الحياة، الذي كان وستظل فيه وحده الحياة (رؤ 2: 7؛ 22: 19)، طوبى لمن يعيش له ويسمعون وصاياه (رؤ 22: 14) وطوبى لمن يموت فيه ويُبيِّض ثيابه بدمه (رؤ 14: 13، 7: 14).

ختام

لقد أعلنت عجزي من البداية وتمنَّيتُ لو كانت لي القدرة البحثيَّة والاستنارة الروحية والبلاغة الكلامية التي تمكِّنُني من تجسيد معاني الميلاد للقارئ كما تُعلِّمها لنا كلمةُ الله، وها أنا أختم طالبًا من القدير أن يسامحني عن قصوري في التقديم المستَحَقِّ للمولود العجيب، المشير، الإله القدير، الأبدي، رئيس السلام.

لكني أدعو كلَّ متألم وفاقد الرجاء ليستقبل مصدر رجائنا، يسوع المسيح. وأدعو كل مُضطَهَدٍ وهارب من وحشية الإنسان أن يلتصق بمولود بيت لحم مُضطَهَدِ هيرودس، ومُستَهدَف التنين. وأدعو كل من فقد ثروته ووظيفته، بل وكرامته وسلطانه، بأن يذكُر ذاك المتجسِّد الذي أخلى نفسه لأجلنا فرفَّعَه الله وأعطاه اسمًا فوق كل اسم. وأدعو كلَّ من نَغَّصت الخطيةُ حياتَه وضيَّعت سنواتٍ من عمره دون شبعٍ أن يذكُرَ حَمَلَ الله الذي أتي ليحمل خطايانا، أدعوه ليلتصق برب الحياة، وشجرة الحياة، وخبز الحياة. أدعو

كلَّ واحد منا أن يذهب اليوم مع الرعاة والمجوس، لا ليهلِّلَ لمولد المخلِّص فقط، بل ليسجد له كملكِ الملوك وربِّ الأرباب مُتوِّجًا إياه ملكًا على الحياة كلها.

يا سيدي ومخلصي: إن سعادتي هي في مولدك في حياتي، وضماني هو في مُلكك على ذاتي، فأعني أن أحتفل بك، بأن أحيا لك وأموت لك فأكون معك كل حين.